تفسير القرآن الكريم

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم (وَالْعَصْرِ ، إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

مكان نزولها وعدد آياتها

قال ابن عباس : هى مكية .. وقال مجاهد : هى مدنيـــة . والجمهور على الأول . وآياتها ثلاث بالاتفاق .

بيان أوجه اتصالها بما قبلها

ذكر سبحانه وتعالى فيما قبلها (التكاثر) صـــفة الغافلين اللاهين بالتكاثر والتفاخر ، وذكر فى هذه صفة المؤمنين العاملين ، والشىء إذا قوبل بضده تميز أكبر تميز ; فلا جرم ذكرت هذه بعد تلك .

بيان المعنى

« والعصر » : قسم ومقسم به . والعصر يطلق ويراد به الدهر الذى تقع فيه الحوادث ، ويطلق ويراد به جزء معين منه ، وهو وقت العشى الذى هو وقت صلاة العصر . ويطلق ويراد به صلاة العصر .

بيان المعنى المراد

واختلف العلماء فى المراد بالعصر الذى أقسم الله به فى السورة الكريمة :

فقال ابن عباس : إن المراد به الدهر ، أى الزمان كله .

ووجه الحكمة فى القسم به اشتماله على الأعاجيب الدالة على قدرته سبحانه وتعالى : ففيه السراء والضراء ، والنعماء والبأساء ، والصحة والسقم ، والفرح والحزن ،

والغنى والفقر ، والعز والذل ، والهناءة والشقاوة ، والحرب والسلم ، والصداقة والعداوة . وفيه غير ذلك مما لو تنبه له العاقل لعلم أن للكون ربا هو خالقه ومدبره ، ومنظمه ومصيره ، وإذا علم ذلك توجه إليه بالعبادة والضراعة ، والخضوع والطاعة ، والإذعان والتسليم .

وقال قوم : إن المراد به وقت العشى .

ووجه الحكمة فى القسم به : أن فيه صلاة العصر ، وهى الصلاة الوسطى الفاضلة التى خصها الله بالذكر فى قوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

ولا ريب أن زمنا فيه صلاة أمر الله بالمحافظة عليها بوجه خاص يكون بمكان من العظمة ، يستأهل به أن يقسم به ، وأن يخصه الله بمزيد من الإجلال والإعظام .

وقال مقاتل : إن المراد به صلاة هذا الوقت .

ووجه الحكمة فى القسم بها : أن الملائكة تحضرها كما تحضر صلاة الفجر ، فتشهد لمن حافظ عليها وأقامها ، وتشهد على من تركها وأضاعها .

ويا فوز من تشهد له الملائكة وتبارك عمله ، ويا خسر من تشهد عليه وتنعى عمله وتذكر وزره .

وذهبت طائفة إلى أن المراد به وقت العشى ، ولكنه ليس العشى فى يوم من الأيام ، بل العشى فى الدهر كله جملة .

وذلك العشى هو وقت رسالة محمد ﷺ ، فإن هذا الوقت هو آخر الدهر ، كما أن العشى هو آخر اليوم .

وقد استأنسوا لهذا القول بما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم من الأمم مثل رجل استأجر أجيراً فقال : من يعمل إلى الظهر بقيراط ؟ فعملت اليهود ، ثم قال : من يعمل إلى العصر بقيراط ؟ فعملت النصارى ، ثم قال : من يعمل من العصر إلى المغرب بقيراطين ؟ فعملتم أنتم » .

وعلى هذا يكون القسم بزمان الرسول ﷺ ، وهو الذى أميل إليه وأرتضيه .

وإنما أقسم الله به ، كما أقسم بمكانه فى قوله تعالى : « لا أقسم بهذا البلد » تعظيما لزمان الرسول ومكانه ، وفى ذلك تعظيم له صلى الله عليه وسلم وتشريف ، وإظهار لمكانته وجليل قدره .

وأيا ما كان المراد من العصر فهو شىء محدث مخلوق أقسم الله به ، كما أقسم بالشمس والقمر ومواقع النجوم ، وبالليل والنهار والضحى ، وغير ذلك .

وهذه الأقسام جارية على العادة من توكيد الأخبار بالأقسام .

والله سبحانه وتعالى غنى عن ذلك ، ولكن المخاطبين الجاحدين فى حاجة إليها .

ومما ينبغى علمه أنه لا يلزم أن يكون القسم بشىء يخشى المقسم إذا حلف به وحنث أن يقع تحت المؤاخذة ، بل قد يكون القسم بشىء من هذا - وهو لا يصح فى جانب الله - وقد يكون بشىء له قدر وقيمة فى ذاته وعند المقسم ، ويكون القسم به للدلالة على قدره وخطره ومكانته ، والفوائد المرتبطة به ، وأقسام الله تعالى من هذا الباب .

وقد يدل القسم على تأكيد وجود المقسم به للرد على من ينكره ، كالقسم بيوم القيامة ، وقد يدل على غير ذلك بحسب المواقع وما يتبع المقسم به من الصفات .

« إن الإنسان لفى خسر »

المراد بالإنسان الجنس الذى يشمل المؤمن والكافر ، بدليل أنه استثنى منه الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والاستثناء دليل على أن المراد منه العموم .

« والخسر » كالخسران : هو ذهاب رأس المال أو انتقاصه ، وقد ينسب إلى الإنسان فيقال : خسر فلان ، وقد ينسب إلى فعله فيقال : خسر تجارته .

وأكثر ما يقال الخسران فى المقتنيات الخارجة عن الشخص كالمال ، وقد يقال على الأقوال النفسية والمعنوية كالإيمان والثواب .

وكل خسر ذكر فى القرآن فقد أشير به إلى تعاطى مايزيد فى الوزر ، ويستوجب الإثم ، وينقص الأجر .

والمراد بالخسر هنا ما ينغمس فيه الإنسان من الأسباب المردية ، والمناكر الموبقة ، والخسائس المهلكة .

وتنكير كلمة «خسر» للدلالة على تعظيم خسرانه ، وأنه بلغ مبلغاً لاتدرك حقيقته .

والتعبير بقوله « فى خسر » يدل على أن الإنسان كالمغمور فى الخسران ، وأن هذا الخسران قد أحاط به من كل جانب ، وذلك أن كل ساعة تمر بالانسان ، فان كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك فى الخسر ، وإن كانت مشغولة بالمباحات فالخسران أيضاً حاصل ، وإن كانت مشغولة بالطاعات فهى غير متناهية ، وترك الأعلى والاقتصار على الأدنى فيه نوع خسران .

والمعنى : وحق العصر إن كل فرد من أفراد الإنسان ممن يصح أن يتوجه إليه الخطاب والتكليف ، ويصح أن يقابل بالمدح والذم ، ويجازى بالثواب والعقاب ـ يحيط به الخسران ، بما ركب فيه من غرائز الشهوة ، وبما طبع عليه من حب الاستعلاء والنفوذ ، تلك الغرائز والطباع التى تزين له دائماً الدنايا ، وتدعوه إلى ارتكاب المناكر ، والولوج فى سبيل الغى ، وطرق البغى ، ومشارع الهوى .

ولا ينجيه من هذا إلا الإيمان الذى يدعو إلى العمل الصالح ، والتواصى بالحق والصبر .

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » :

فى هذه الآية استثناء للمؤمنين الصالحين ممن سبق الحكم عليه بالخسر ، وفيه تسلية للمؤمن بأن العمل الصالح يوصله إلى ما يرغب فيه من رضوان ربه ، وعظيم فضله ، وبالغ كرمه .

لهذا ، ولم يذكر فى الآية الكريمة ما يجب الإيمان به ، وكذا لم تذكر فيها الأعمال الصالحة المنجية من الخسار ، الواقية من البوار ، الحافظة من النكال .

ومما لاشبهة فيه أنه كان معروفا منذ بدء الرسالة ما يجب الإيمان به ، والتصديق بفرضه . فمن فجر الرسالة والرسول ﷺ يدعو الناس إلى الايمان

بالله والتصديق بوحدانيته ، وإلى الإيمان باليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .

والدليل على ذلك أن النبي ﷺ أجاب السائل عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » .

وقد اشتمل القرآن الكريم فى كثير من سوره على بيان الأعمال الصالحة ، وهى محصورة فى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه .

بيان حقيقة الإيمان

والإيمان هو التصديق الذى لا مجال للريب فيه ، ومعناه عقد القلب الذى يلازمه طمأنينة النفس وزوال الشك .

والإيمان الحق لاتنطوى حقيقته على الأعمال ، بل هى زائدة عليه ، لكن مناط النجاة مرتبط بهما ، فلا يجوز لأحد أن يتكل على غير الايمان والعمل الصالح ، لأن الله سبحانه وتعالى يخبر بأن كل إنسان واقع فى الخسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

نعم الآية لا تدل على تخليد العصاة فى النار كما هو رأى المعتزلة ، لأن الخسر كما يكون بالتخليد يكون بدخول النار لاستيفاء الجزاء ، ثم الخروج منها بعد الاستيفاء .

وقد شرط الله للنجاة بعد الايمان والعمل الصالح التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، وبين أن كمال الإنسان فى نفسه لايكفى حتى يسعى إلى كمال غيره فيوصى بالحق والصبر .

والحق : هو الأمر الثابت ، وهو كل ما حكم الشرع بصحته ولا يسوغ إنكاره ، وهو الخير كله ؛ من توحيد الله تعالى وطاعته ، واتباع كتبه ورسله ، والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة .

والصبر : هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع .

وإن للصبر أسماء تختلف باختلاف مواقعه ، وتتنوع بتنوع مواضعه .

فحبس النفس عند المصيبة يسمى صبراً ، وضده الجزع .

وحبس النفس عند الإثارة يسمى روية ، وضده العجلة .
وحبس النفس فى جهاد الأعداء يسمى بسالة ، وضده الجبن والخور .
وحبس النفس عن المعاصى يسمى إيمانا ، وضده الفسوق .
وفى الصبر على المعاصى مشقة ، وفى الصبر على طاعة الله مشقة ، والتكاليف كلها مشقة .
وإن الصبر من الأخلاق الأصيلة الكريمة ، وهو أساس جميع الفضائل : ولذلك قيل : إنه نصف الإيمان .
وقد ذكره الله سبعين مرة فى القرآن الكريم ، ووعد عليه بالجزاء الأوفى ، والمثوبة العظمى ، فقال : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .
نسأل الله أن يهبنا الصبر على طاعته ، والكف عن معصيته ، وأن يروض نفوسنا على خدمة كتابه ، ونشر دينه ، وإعلاء كلمته ، وأن يوفق هذه المجلة لنصرة الدين ، وخدمة المسلمين .

عبد الرحيم فرغل البلينى
المدرس بكلية الشريعة

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

منشآت الاتحاد

معهد فاروق الأول :

للتجويد وإيصال أسانيد القراء بأئمة القراءات . مدة الدراسة فيه سنتان يمنح الطالب فى نهايتها شهادة قارىء مجيد ، ويتجاوز للمجيد عن السنة الأولى .

أوقات الدراسة من الساعة ٩ صباحا إلى الساعة ١١ صباحا عدا أيام الخميس والجمعة والمواسم والأعياد وشهر رمضان .

وتقرر مكافأة لأوائل المتخرجين : ١٠ جنيه للأول و ٨ جنيه للثانى و ٦ جنيه للثالث و ٤ جنيه للرابع و ٢ جنيه للخامس .